التاريخ فى سير أبطاله

أحمـــد عرابى

أما آن للتاريخ أن ينصف هذا المصرى العلاح
وأن يحدد له مكانة بين قواد حركتنا القومية ؟

للأستاذ محمود الخفيف

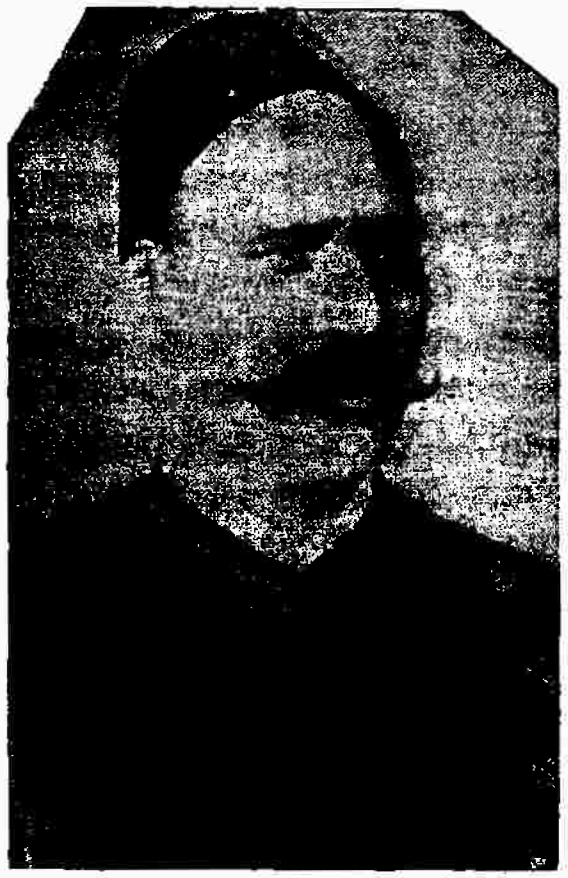

ما زالت انجلترة وفرنسا بالسلطان حتى استطاعتا إقناعه بعزل إسماعيل فخلفه على أريكة مصر ابنه توفيق ، وفى عهد توفيق قدر لمصر أن تنبعث فيها ثورة وقدر لأحمد عرابى أن يكون زعيم تلك الثورة ...

وما أشبه توفيقاً فى هذا بلويس السادس عشر ذلك الملك المسكين الذى قال عنه بعض المؤرخين إنه ورث عن أسلافه الثورة والعرش معاً ؛ فلقد تجمعت عوامل الثورة الفرنسية قبل عهده ، وما زالت تنمو وتتزايد ، وما زالت تلك الأقلام الجبارة أقلام فلتير وروسو ومنتسكيو وأضرابهم تحدوها وتمهد الطريق لها حتى جاء عهد ذلك الملك فاضطرب البركان ثم انفجر فكانت الرجفة التى زلزلت فرنسا زلزالاً شديداً

وأرى توفيقاً قد ورث عن سلفه كذلك العرش والثورة ، فلقد تجمعت عوامل الثورة العرابية فى عهد ذلك السلطان ، ثم راحت تحدوها وتمهد لها الطريق أقلام جمال الدين وتلاميذه حتى جاء عهد توفيق فانبعثت الرجفة !

لم تكن الثورة العرابية حركة عسكرية فحسب كما يحلو لكثير من المؤرخين أن يصوروها عن عمد أو عن غفلة ، وإن الذين يفعلون ذلك منهم ليأتون من ضروب الخطأ ما نعجب كيف يحملون على قبوله أنفسهم وعقولهم ، وإنما كانت الثورة العرابية إذا أردنا وصفها فى جملة: التقاء الحركتين الوطنية والعسكرية واندماجهما . فلما ذهب عرابى إلى الخديو على رأس جنده ذهب يحمل إليه مطالب الجيش ومطالب الأمة معاً ، ومن ذلك الوقت صار سلاح الثورة السيف وقد كان سلاحها القلم ، أو بعبارة أخرى حارت قيادتها بين السيف والقلم !

أخذت انجلترة وفرنسا تتنافسان فى بسط نفوذهما فى مصر منذ حملة بونابرت ؛ ولكنهما وجدتا فى محمد على رجلاً لا كالرجال يمد سلطانه لا يفقد ذلك السلطان ، فاكتفت أولاهما بالسعى إلى تحطيمه ، وفرحت الثانية بمصاحبته .

وجاء عهد إسماعيل ، وفتحت قناة السويس ، وازداد مركز مصر بذلك خطراً ، فنصبت كل من الدولتين شباكها وعولت كل منهما أن تسيطر على مصر من طريق المال أولاً ثم من طريق التدخل السياسى ثانياً .

وراح اسماعيل يستدين ويسرف فى الاستدانة حتى تراكمت على مصر الديون . ولما أرادت مصر أن تجد لمشكلتها المالية حلاً سنحت الفرصة لانجلترة فراحت تتدخل فى شئون مصر وتتربص بها الدوائر .

وما هى إلا سنوات معدودة ثم منيت البلاد بالمراقبة الثنائية ، وأصبح أمر داخلها ومنصرفها فى أيدى المراقبين الأجنبيين . ثم نظرت مصر فإذا وزير ماليتها انجليزى ، وإذا وزير الأشغال فيها فرنسى ، وإذا مصالحها تعتلى بالموظفين من الأجانب يتمتعون فيها بالمرتبات العالية ، وإن أهلها لتثقل كواهلهم الأعباء حتى يضيقوا بالحياة .

واشتدت الضائقة على الأهلين لكثرة ما كانوا يؤدونه من

الضرائب ؛ وأحس المتعلمون منهم أنهم خرجوا من حكم الخديو المطلق ليدخلوا فى نير الأجانب الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة .

وهبط السيد جمال الدين مصر يبث فيها مبادئه ، ويحمل إليها قبسه ، وكان جمال ذلك الرجل الذى أطلعه الشرق ليضيفه إلى كواكبه الزهر، يرى أن علة العلل فى هذا الشرق المغلوب على أمره أن شعوبه سليبة الإرادة : تحكم على رغمها ، وتسخر لحساب الحاكمين ؛ ولا مخرج لها إلا أن تعود حرة كما كانت من قبل حرة ؛ ولن يكون هذا إلا أن تقوم الشورى مكان الاستبداد وأن ينسخ نور العلم ما تراكم فى الشرق من ظلمات بعضها فوق بعض .

وكانت التربة فى مصر صالحة لبذوره فنمت نمواً سريعاً يحمل على الدهشة ؛ فما أسرع ما ظهرت فى البلاد حركة وطنية كأعظم وأجمل ما تكون الحركات القومية ؛ وراح تلاميذ جمال يذيعون فى البلاد مبادئه . يقول فى ذلك الشيخ محمد عبده أنبغ تلاميذه وأحبهم إليه : « وكان طلبة العلم — طلبة جمال الدين — ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد خصوصاً فى القاهرة » .

وظهرت فى تلك الأيام الصحافة العربية ، وراح الناس يقرأون فيها نفثات الوطنية ، وأخذت تهب عليهم من بين سطورها نسمات الحرية ، والتمع لهم فيها وميضها ، فانتعشت أرواحهم وهفت إلى الانطلاق من الأسر قلوبهم .

وأدى اتصال المصريين بالأجانب إلى تتبع الأنباء العالمية فى الحرب والسياسة . فزادت معرفتهم بأحوال العالم وقارنوا بين الشعوب الحرة وبين أنفسهم ، وراحوا يستنبطون أسباب ما باتوا فيه من شقاء وذلة .

واهتدى الناس إلى منهجهم فعرفوا أن منجاتهم فى أن يتخلصوا من الحكم المطلق ومن نفوذ الأجانب جميعاً ، وظهر فيهم الزعماء فراحوا يعقدون الاجتماعات ويتدارسون أمرهم بينهم ، وظاهرهم الخديو آخر الأمر فأصابوا حظاً كبيراً من النجاح ، ورأى المصريون لأول مرة فى تاريخهم وزارة وطنية تخضع لمشيئة مجلس يجلس فيه فريق منهم يعبرون عن مشيئتهم

ولكن المصريين ما لبثوا أن فجعوا فى آمالهم بتدخل الدولتين تدخلاً جريئاً فى شئونهم أدى إلى عزل الخديو وتركهم ذاهلين ، تتنازع أفئدتهم عوامل الحنق والخوف والتشاؤم من المستقبل

وأسلمت قيادة السفينة إلى توفيق ؛ فما كادت تسير حتى اكتنفتها الرياح الهوج ، وقامت أمامها العقبات من كل جانب ؛ فها هم أولاء المصريون تتأجج نيران الحقد فى قلوبهم على الأجانب ولن يطيقوا بعد اليوم أى جنوح إليهم ، وها هى ذى انجلترة تتحفز وتتربص ، ثم ها هى ذى فرنسا تتحين الفرص لتنقلب على منافستها .. وهناك تركيا جاءت آخر الأمر تطلب أن تعيد سلطانها فى مصر سيرته الأولى فتردها الدولتان المتنافستان على عقبيها

والربان غير عليم بالسياسة وأنوائها ، ولكنه على الرغم من ذلك راح يستغنى عن أعلم رجاله بها ، فتخلص من شريف وهو أحوج ما يكون إليه ؛ وتنكر للحركة الوطنية وكان حقيقاً أن يعطف عليها عسى أن يحبه الوطنيون وعسى أن يحملهم هذا الحب على تناسى ما لحق بمنصب الخديوية من هوان صغر به فى أعينهم ؛ ولكن توفيقاً غفل عن هذا أو تغافل عنه لما رآه من إقصاء أبيه عن منصبه على ما كان له فيه من جاه وقوة

وحل رياض محل شريف فآلم ذلك دعاة الحركة الوطنية وأزعجهم أن يروا رياضاً يجارى الخديو فى استكثار الدستور على المصريين فيقنع بما لا يقنع به وطنى مكتفياً بمبدأ مسؤولية الوزارة عن أعمالها مستغنياً عن مجلس شورى النواب الذى يحرص عليه الوطنيون كل الحرص

وجاء قانون التصفية فازداد الوطنيون به آلاماً على آلامهم ، ورأوا ما فيه من غبن شديد يتجلى فى إلغاء دين المقابلة وقد أخذ من جيوبهم كما رأوا ما فيه ما هو أكثر من الغبن ألا وهو عدم التنازل عن شىء من الدين وهم يعلمون كيف كانت تقترض تلك الأموال ومبلغ ما كان يصل مصر منها ؛ وهم يعلمون كذلك مجازفة الأجانب بأموالهم مما يحملهم كثيراً من المسئولية . هذا إلى أنهم رأوا مرتبات الموظفين من الأجانب فى الحكومة المصرية تبقى على حالها من الارتفاع فلم يدر بخلدهم من قاموا بالتصفية أن يراعوا ذلك فى قرارهم فينزلوا بها إلى الحد اللائق

تلك هى الحركة الوطنية أو تلك هى نذر الرجفة . أما الحركة العسكرية فأول ما نتحدث به عنها أنها بدأت كذلك فى عهد اسماعيل وتجلى أول مظهر من مظاهرها فى تلك الحركة التى اعتدى فيها فريق من الضباط على نوبار أمام وزارة المالية عام ١٨٧٨ م . وكان ما دفع الضباط إلى تلك الحركة ما لحقهم بسبب الارتباك من الاستغناء

عن عدد منهم ومن تأخر مرتباتهم عنهم بينما كان الجراكسة في الجيش لا يلحق بهم شيء من هذا ...

ولقد استغنى عن عدد كبير من الجند في أوائل عهد توفيق حتى نزل عدد الجيش المصري عما اتفق عليه أخيراً في بداية هذا العهد . وولي وزارة الجهادية في حكومة رياض عثمان رفقي الجركسي فكأنما جعل أساس سياسته الكيد للمصريين ما وسعه الكيد؛ فلقد راح يذيقهم من نكاله بقدر ما راح يفيض على الجركس من عطف وإحسان . ولم يكن ذلك عجيباً من جانبه ففي دمه ما في دم جنسه من بغض قديم للمصريين الذين كانوا في رأيهم فلاحين لا يصلحون إلا ليكونوا عبيداً

وكان طبيعياً أن تقتصر الترقيات في الجيش على الجركس . وراح عثمان رفقي يعد مشروع قانون يمنع به ترقية الجند من تحت السلاح لكي يبقى العنصر الجركسي في الجيش هو العنصر السائد . أما عن كبار الضباط فقد بدأ يقصيهم عن مراكزهم كما حدث في أمر احمد بك عبد الغفار قائمقام السواري إذ فصله رفقي وعين مكانه أحد الجراكسة ، وكما حدث في نقل عبد العال حلمي إلى عمل في الديوان ووضع جركسي آخر طاعن في السن محله

أما عن الجند فقد كانت الحكومة تسخرهم في أعمال لا تمت إلى الجندية كحفر الترع والزراعة في أراضي الخديو وغير ذلك . ومما يذكر عن عرابي هنا أنه عارض معارضة شديدة في أن يعمل جنوده في حفر الرياح التوفيقي ، وهو موقف من مواقف شجاعته ، تلك الشجاعة التي يأبى خصومه أبداً إلا أن يروها تهوراً ، والتي نراها في أكثر الأحوال على خير ما تكون شجاعة الرجال ذوي الحمية والإخلاص ... وأي مأرب لعرابي في هذا الموقف؟ وفيم تكون معارضته في أن يسخر جنده في مثل تلك الأعمال إن لم يكن مبعثها الإنصاف والغيرة ؟ وما يكون إنصافه وغيرته في موقف كهذا إلا بسالة وإقداماً

تلك هي المشاكل العسكرية . ولو أن تلك المشاكل عولجت بما يقتضيه العدل لما قدر للحركتين أن تلتقيا فتكون منهما تلك الثورة التي اقترنت باسم عرابي . ولكن كان دون علاجها عقبات ؛ فهناك تعصب رفقي وغطرسته ، وجهل رياض بالشؤون الحربية وترفعه عن هؤلاء الفلاحين من الجند لأنه يترفع عن الفلاحين جميعاً . ثم هناك دسائس الجراكسة في الجيش وكيدهم للمصريين ذلك الكيد الذي لا يفتر

وكان عرابي في أوائل عهد توفيق قد أخذ يتصل برجال الحركة الوطنية ، أو على الأقل أخذ يتصل بالحركة نفسها ؛ وهو من أول نشأته متحمس لبنى وطنه ، وشارك عرابي في هذه النزعة الوطنية بعض ضباط الجيش . ولا غرابة في هذا فإن المسألة العسكرية في وضعها هذا كان لا بد أن تدب إليها الروح الوطنية فتكون في مظهرها أمراً متعلقاً بالجيش بينما هي في الواقع كانت شعبة من تلك الحركة العامة التي كانت تشغل أذهان المصريين منذ أواخر عهد اسماعيل

وكان طبيعياً أن تبدأ المتاعب من جانب الجيش وقد أخذت رجال الحركة الوطنية حيرة منذ أن استقال شريف . ولقد كانت مسئولية الحكومة عن هذه المتاعب وتعقدها مسئولية جسيمة هي عندي من أكبر سوءات ذلك العهد ...

على أن عرابياً نفسه قد رقي في أول عهد توفيق إلى مرتبة أميرالاي ، ومع ذلك فقد أدت سياسة الحكومة أو على الأصح سياسة رفقي أن يكون هو على رأس المتذمرين

بدأت حركة التذمر بأن قدم بعض الضباط المصريين شكوى إلى وزارة الجهادية عن مرتبات لهم متأخرة، وكان عرابي ممن وقعوا على هذه الشكوى . ونظرت الوزارة في الأمر، وكان قنصلا انجلترة وفرنسا قد تداخلا في الأمر ، وألفت لجنة للتحقيق أقرت مطالب الضباط ، وكان ذلك في مايو سنة ١٨٨٠ ، ولكن رياضاً ووزيره رفقي رأيا في ذلك العمل القانوني حركة جريئة وخروجاً على النظام !

(يتبع)

الخفيف

محمد سعيد العريان
يقدم
حياة الرافعي
تاريخ الأدب في جيل من الأدباء
يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكاتب الشهيرة
الثمن ١٥ قرشا